تقبيل أركان البيت واستلامها بين الاتّباع و التبرُّك

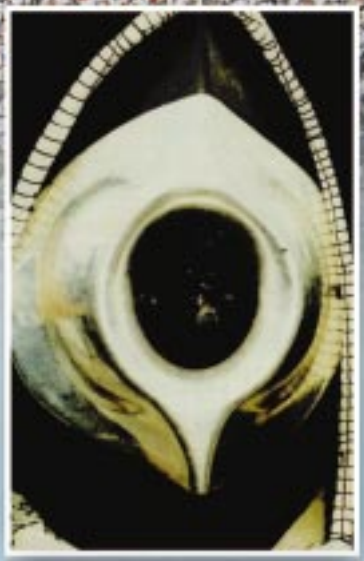

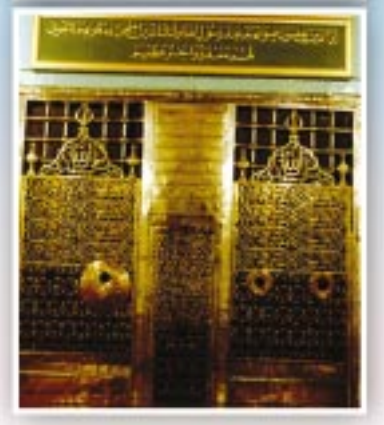

بقلم الشيخ /
أحمد بن حسن المعلم •

• استهلال :

التعبد لله عزوجل بما شرع في كتابه وسنة نبيه الحبيب المصطفى ﷺ من أهم الأسباب لحصول الأجر والثواب للإنسان إذا صاحبه الإخلاص وصدق التوجه لله عزوجل .

وفي هذه المقالة ينبه فضيلة الشيخ / أحمد بن حسن المعلم - سدده الله - إلى قضية مهمة وممارسة متكررة ، ربما نتج عنها العسر والخصام والزحام والمصادمة بين المؤدين لمناسك الحج والعمرة ، خصوصاً في حال كونهم جوار الكعبة المشرفة ، وسبب ذلك: الاعتقاد الخاطئ، والفهم الضعيف ، والجهل بالتصور الصحيح للهدي النبوي في هذه المسألة .

• فما منزلة الحجر الأسود ، ومقام إبراهيم ، والركن اليماني في الشريعة ؟

• وما حدود الاعتقاد بالنية لاستلام هذه المواضع وتقبيلها ؟

• وما علاقة الغلو في الاعتقاد بهذا الأمر بالشرك ؟

هذه الأسئلة وغيرها تجد إجابتها في ثنايا هذا المقال ، فاحرص على اتباع الحق ، وتقبل الله منا ومنك صالح الأعمال .

الحمد لله الذي بوأ لإبراهيم مكان البيت لإقامة التوحيد ، وأمره وإسماعيل أن يطهراه من الشرك والتنديد ، وشرع حجّه والطواف به وتعظيمه لسائر العبيد ، وجعل شعار الحج كلمة التوحيد ، التي تعلن على لسان كل حاجّ ، أن هذا البيت وشعائره ومشاعره لله وحده ، ليس له فيها ند ولا شريك .

والصلاة والسلام على أشرف من حج واعتمر ، وأقام شرع الله وبأمره ائتمر ، سيدنا ونبينا محمد ، وعلى آله السادة الغُرّ ، وصحابته المطيفين به كالهالة بالقمر ، وعلى من ثبت على هديه وعلى منهاجه استمر ، وبعد :

• ملة إبراهيم عليه السلام قامت على التوحيد ونبذ الشرك :

فإن الله بوأ لإبراهيم مكان البيت ، وأمره أن يرفع قواعده ، ليكون رمزاً للتوحيد ، وأمره أن يطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود ، يطهره من الشرك والأوثان وسائر ما يصرف لغيره من العبادات والأنساك . والملفت للنظر ما تميزت به آيات سورة الحج المتعلقة ببناء البيت وحجه وتعظيم شعائر الله ، ومنها البدن التي تُهدى إليه ، من تكرار للنهي عن الشرك والأمر بالتوحيد ، وتخصيص تلك المشاعر والشعائر لله وحده لا شريك له ، مما يؤكد أنّ أعظم الحكم والغايات من

• عضو جمعية علماء اليمن ، رئيس جمعية الحكمة اليمانية الخيرية - فرع حضرموت .

وضع البيت وتشريع الحج إليه ، بما يحتوي من أنواع العبادات ، إنما كان لإظهار التوحيد وتثبيته وطمس الشرك وإلغائه ، وتعليق العباد بربهم سبحانه دون سواه .

وقد قام إبراهيم عليه السلام بذلك أتم القيام ، حفاظاً على كمال التوحيد وتنقية العبادة لله ، حتى ذكر بعض العلماء : أنّ من حكمة رؤيا إبراهيم عليه السلام أنّه يذبح ابنه إسماعيل ، وعزمه على إنفاذ تلك الرؤيا ، أن ذلك لإزالة أي محل لغير الله ـ عزّ وجل ـ في قلب خليله إبراهيم عليه السلام وبذلك أصبح إبراهيم سيد الحنفاء ، وقدوة الموحدين من الرسل فمن دونهم .

وبعد إبراهيم ، قام إسماعيل بما كان عليه أبوه من المنهج المستقيم والدين القويم دون انحراف ، وتبع إسماعيلَ على ذلك أبناؤه ، حتى طال عليهم الأمد ، وغزاهم الانحراف بحكم احتكاكهم بالأمم المشركة حولهم . وكأن الغلو في البيت الحرام ، رمز التوحيد، هو أول خطوات ذلك الانحراف ، إذ كان من غلوهم وتعظيمهم له فوق ما أمروا به ، أن أحدهم إذا ظعن عن مكة ، وأقام في غيرها من البلاد ، حمل معه حجارة من حجارة الحرم ؛ ليتذكر بها بيت الله ويتبرك بها في منزله الجديد ، حتى أفضى بهم ذلك إلى عبادة الحجارة واتخاذها أصناماً وعبادتها من دون الله تعالى (١).

• كيف دخل الشرك إلى جزيرة العرب :

وانتصب في العرب في مكة نفسها ، أيام ولاية خزاعة لأمر البيت ، داعية الشرك الأول في جزيرة العرب ، عمرو بن لحي الخزاعي ، فوسّع مدى الشرك ، ورفع أعلامه ، وطمس معالم التوحيد ، إذ جلب الأصنام من الشام ، ونصبها داخل بيت الله ، ودعا إلى عبادتها صراحة ، وسيب السوائب وبحر البحائر ، وحمى الحمى ، وأشاد بذلك الأساس الأول لدولة الشرك في جزيرة العرب ، وموطن التوحيد في حرم الله ، حتى عمّ الشرك الجزيرة كلها ، ووصل الأمر إلى أن نظر الله ـ عزّ وجل ـ إلى الناس عربهم وعجمهم ، فمقتهم إلاّ بقايا من أهل الكتاب ، كما في حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم .

• النبي ﷺ يطهر البيت الحرام من الشرك وعبادة الأوثان :

وعند ذلك بعث الله رسوله ﷺ بالحنفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام فدعا إلى الله ، وجاهد فيه حق جهاده ، حتى أقام الله الملة الحنيفية ، وأزال دولة الشرك والإلحاد، ودخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح مطهراً لها من درن الشرك والإلحاد ، وجعل يطعن تلك الأصنام مردداً : ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾.

ثم توجه إلى الكعبة المشرفة ، فأخرج ما بداخلها من أصنام ، وطمس ما على جدرانها من صور تحكي إبراهيم وإسماعيل وهما يستقسمان بالأزلام ، طمسها وهو يقول «قاتلهم الله ، والله ، إن استقسما بها قط». وواصل طمس معالم الشرك وأسبابه ، حتى أنه نهى عن الحلف بالكعبة ، إذ كان الحلف بها من أشهر أقسام العرب ، وذلك النهي دليل على نهيه ﷺ عن سائر أنواع الغلو فيها ، وفي سائر المشاعر والمواضع المتصلة بها ، وحينما طهر الله بيته من كافة مظاهر الشرك والجاهلية ، حج ﷺ حجة الوداع محيياً بذلك سنة إبراهيم عليه السلام كاملة غير منقوصة ، مبرأة من كل ما ألصقه بها المشركون .

• النبي ﷺ يحيي ملة إبراهيم في استلام الحجر الأسود والركن اليماني :

وكان مما أحيا ﷺ امتثالاً لأمر ربه واقتداء بأبيه إبراهيم عليه السلام استلام الحجر الأسود وتقبيله والسجود عليه ، واستلام الركن اليماني دون تقبيل أو سجود ، والصلاة خلف مقام إبراهيم . فعل ذلك النبي ﷺ تعبداً لله تعالى وامتثالاً لأمره ، وطلباً لما رتب الله على ذلك من الأجر والثواب في الآخرة ، لا لأجل أن تلك الذوات تنفع أو تضر ، أو تهب البركة لمن استلمها وقبّلها ، كما قد يعتقده الجاهلون وإن كانت فاضلة في ذاتها ، فالحجر الأسود ومقام إبراهيم من حجر الجنة ، كما وردت بذلك أحاديث حسنة ، وصحح بعضها بعض العلماء ، ولكن خطايا الجاهلية وأقذارها طمست أنوارها ، وأزالت ما يمكن أن يحصل لمن مسّهما من شفاء الأمراض ونحوها (٢) فلم يعد المؤمن الموحد يلمسها أو يستلم الحجر كما هو مشروع ، من أجل ذلك النفع العاجل والبركة المباشرة ، وإنما يفعل ذلك تأسياً بالنبي ﷺ وطلباً لما جعل الله في استلام الحجر من فضيلة يجدها مستلمه يوم القيامة ، حين يبعث الله ذلك الحجر وله لسان وشفتان يشهد لمن استلمه بحق ، ولما أخبر النبي ﷺ أن استلام الركنين : الحجر الأسود والركن اليماني ، يحط الخطايا (٣).

• عمر الفاروق يحذر من الانحراف في مشروعية الاستلام والتقبيل :

ولكن ماجُعل في نفوس البشر ، من تقديم الماديات على المعنويات والمشاهدات على المغيبات ، مما ينبني عليه الغلو فيما عرف فضله . والتماس الخير والبركة منه ، لا بواسطته على الوجه المشروع ؛ جعل بعض الناس يتعلقون بذات الركن والحجر الأسود والمقام وسائر جوانب الكعبة ، وبعض المواطن الأخرى داخل الحرم وخارجه ، ويبالغون في تقديسها وطلب البركة بمسحها وتقبيلها ، ويجدون لذلك لذة وارتياحاً لا يجدونه في الصلاة ، ولا في الطواف ! ولا في سائر العبادات ؛ مما يدل على انحراف في فهم المقصود من مشروعية الاستلام والتقبيل ، وهذا ما خشيه عمر رضي الله عنه فوقف وقفته الشهيرة أمام الحجر الأسود ، وأعلن ما هو المقصود من تقبيل ذلك الحجر ، وأنه للاتباع والتأسي بالنبي ﷺ لا لكون الحجر ينفع أو يضر . وإليك نص القصة

---

١ – انظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، الألوسي ٢ / ٢٠٠ .
٢ – انظر صحيح الترغيب والترهيب ١ / ٢٦ – ٣٠ ، والأحاديث أرقام (١١٤٦ – ١١٤٧) .
٣ – المرجع السابق في نفس الموضع ، الأرقام (١١٣٩ – ١١٤٤) .

كما أوردها البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه ، فعن زيد بن أسلم عن أبيه ، أن عمر بن الخطاب ﷺ قال للركن : «أما والله ، إني لأعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ استلمك ما استلمتك ، فاستلمه ، ثم قال : مالنا وللرمل؟ إنما كنا راءينا به المشركين، وقد أهلكهم الله . ثم قال : شيء صنعه النبي ﷺ فلا نحب أن نتركه» (٤) قال النووي في شرح مسلم معلقاً على هذا الحديث : «فأراد به بيان الحث على الاقتداء برسول الله في تقبيله ، ونبه أنه لولا الاقتداء به لما فعله ، وإنما قال : وإنك لا تضر ولا تنفع ؛ لئلا يغتر بعض قريبي العهد بالإسلام ، الذين كانوا ألفوا عبادة الأحجار وتعظيمها رجاء نفعها ، وكان العهد قريباً بذلك ، فخاف عمر ﷺ أن يراه بعضهم يقبله ويعتني به فيشتبه عليه ، فبين أنه لا يضر ولا ينفع بذاته ، وإن كان امتثال ما شرع فيه ينفع بالجزاء والثواب ، فمعناه : أنه لا قدرة له على نفع ولا ضر ، وأنه حجر مخلوق كباقي المخلوقات التي لا تضر ولا تنفع . وأشاع عمر هذا في الموسم ؛ ليشهر في البلدان ، ويحفظ عنه أهل الموسم المختلفو الأوطان . والله أعلم» (٥) .

• ابن عباس يراجع معاوية في استلام أركان الكعبة :

فهذا هو الفهم الصحيح للمقصود من استلام الأركان وتقبيلها ، وأنه فقط لأجل الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ وطلب الأجر والثواب الأخروي من ذلك . ولهذا ، كان الصحابة أو ـ غالبيتهم ـ لا يستلمون إلا ما ثبت أن النبي ﷺ استلمه ، وينكرون على من فعل سوى ذلك . وقد روى الأمام أحمد ـ رحمه الله ـ قصة مهمة تؤكد ما قلت ، حيث ساق سنده إلى مجاهد عن ابن عباس أنه طاف مع معاوية بالبيت ، فجعل معاوية يستلم الأركان كلها ، فقال له ابن عباس : لِمَ تستلم هذين الركنين ، ولم يكن رسول الله ﷺ يستلمهما ؟! فقال معاوية : ليس شيء من البيت مهجوراً ، فقال له ابن عباس : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ فقال معاوية: صدقت (٦) .

ومع هذا الحرص من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على استقامة الفهم والعمل بسنة النبي ﷺ فيما يتعلق بهذا الاستلام والتقبيل ؛ نجد أن من جبلت نفوسهم على تعظيم الأحجار والقبور وآثار الانبياء والصالحين ، والغلو فيها على طريقة المشركين – يجادلون في ذلك ، ويحاولون أن يردوا هذه الأحاديث والآثار الصحيحة الواضحة بالواهيات من الأحاديث وبالمتشابه من القول . فهذا أحد مشاهير القبورية في اليمن ، في إحدى محاضراته يُسأل عن حديث عمر هذا ، وقوله : إن الحجر لا يضر ولا ينفع ، فيجيب : «ولكن علي بن أبي طالب قد رد عليه ، وقال : بلى إنه ليضر وينفع» . انظر إلى هذه الجرأة على رد الحق وعلى مقام عمر ﷺ ومقام علي ﷺ ، وعلى أي شيء يعتمد ؟! إنه يعتمد على حديث واهن ، في سنده رجل هالك رواه الحاكم في مستدركه ، فتعقبه الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ بقوله : «قلت : أبو هارون ساقط» (٧). ومن كانت هذه حاله ، فلا يحل بأي وجه الأخذ بحديثه ، لا على مذهب من يجيز رواية الحديث الضعيف في فضائل الأعمال ، ولا مذهب غيره من باب أولى . ومع ذلك ، فإن سياق الأثر إنما يدل على ما سبق أن ذكرناه ، من أن النفع والضر المقصود ، إنما هو الشهادة لمن استلمه بحق ، أو كما هو لفظ المستدرك : «يشهد لمن استلمه بالتوحيد» (٨) فعاد الأمر ، على افتراض صحة الأثر ، إلى ماهو مقرر من عقيدة أهل السنة والجماعة في ذلك ، وليس ما يفهمه ذلك القبوري ومريدوه من إطلاق النفع والضر ؛ لأن فهمهم لذلك ـ أنها تنفع وتضر نفعاً وضراً مباشراً ـ يعبرون عنه بالبركة ، وليس لما يترتب على ذلك من الثواب والشهادة ونحوها ، والدليل على صحة ما أقول ، حرصهم هلى هذه المواطن وتقبيلها ، والتمسح بها أكثر من حرصهم على سنة الحج وآدابه الشرعية الثابتة .

المشاعر والعبادات إنما جعلت لإقامة ذكر الله :

وهناك حديث آخر ، رواه أبو داود والترمذي وغيرهما عن عائشة ، يبين أن جميع المشاعر والعبادات المتعلقة بها ، إنما جعلت لإقامة ذكر الله ، ولفظه : «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، لإقامة ذكر الله» . وهذا الحديث حسنه الأرناؤوط مرفوعا في تعليقه على جامع الأصول (٩) وصحح الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ وقفه على عائشة ـ رضي الله عنها ـ كما في ضعيف أبي دواد الموسع وأياً ما كان الأمر ، فإنه يؤكد ما فهمه عمر ﷺ من أن فعل ذلك ، إنما المراد به العبودية الخالصة لله تعالى ، والاقتداء التام بالرسول ﷺ وما فهمه كذلك ابن عباس وحاجّ به معاوية ﷺ فرجع معاوية إلى قوله .

وقد أنكر قتادة مسح الناس لمقام إبراهيم عليه السلام وقال : «إنما أمروا أن يصلوا عنده ، ولم يؤمروا بمسحه ، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها ، ولقد ذكر لنا بعض من رأى أثره وأصابعه ، فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخلولق وانماح» (١٠) .

وبعد هذا العرض ، نتوصل إلى أن الحاجّ والمعتمر والطائف بالبيت ، عليه أن يجعل نصب عينيه ، وهو يطوف ويستلم الحجر والركن ، ويصلي خلف المقام ، أن يستحضر بأن ذلك كله عبودية لله ، واقتداء برسوله ﷺ وأن البركة المرجوة من ذلك هي الأجر والثواب ، وشهادة الأركان له يوم القيامة ، ولا تغلبه العاطفة أو تقليد الجاهلين ، فيكون همه التماس البركة منها . هذا الموضوع بحاجة إلى بسط ، لعل الله ييسره لنا قريباً .

٤ – صحيح البخاري مع الفتح (٣ / ٤٧١) .
٥ – شرح النووي على مسلم (٩ / ١٦ – ١٧) .
٦ – أحمد في المسند (٣ / ٢٦٦) تحقيق أحمد شاكر و(٣ / ٣٧٠) ، تحقيق الأرناؤوط وقد صححه شاكر وحسنه الأرناؤوط .
٧ – المستدرك (١ / ٤٥٨) .
٨ – انظر القصة الكاملة في المستدرك (١ / ٤٥٧ – ٤٥٨) .
٩ – جامع الأصول (٣ / ٢١٧ – ٢١٨) .
١٠ – الأزرقي في كتاب أخبار مكة (٢٧٧) وعنه الطرطوشي في الحوادث والبدع (٢٦٨) .